



مركز البيدر للدراسات والتخطيط

Al-Baidar Center For Studies And Planning

قراءة في كتاب:

المباني الفكرية لوسائل التواصل الاجتماعي

قسم الابحاث

إصدارات مركز البيدر للدراسات والتخطيط

تتعدد مسائل البحث التي تتناول موضوع وسائل التواصل الاجتماعي أو الفضاء الافتراضي بشكل عام، وقد دخلت كثير من فروع العلوم الإنسانية على خط التحليل والتفسير لاستخدام وسائل التواصل والعالم الافتراضي، ودراسة مدى علاقة الإنسان بالمنظومة المجازية التقنية وانعكاسها على الجوانب النفسية والاجتماعية والفكرية على الإنسان والمجتمع. وربما كان موضوع «المباني والأسس الفكرية لوسائل التواصل» من المسائل قليلة التداول في هذا السياق الذي يلقي الضوء على البعد المعرفي والفلسفي لوسائل التواصل. لذا فهذا الموضوع جدير بالتأمل والفهم والوعي؛ لأن وسائل التواصل الاجتماعي التي أضحت اليوم من أهم عوامل تشكل الآراء والأفكار والثقافات للفرد والمجتمع، وتفرض نمطاً اجتماعياً جديداً في العلاقات والتواصل الأمر الذي لا يمكن تجاهله أو غض الطرف عنه، ففي الوقت الذي تمثل وسائل التواصل الاجتماعي فرصة على مستوى البحث والتعبير عن الرأي وتوفر مساحة الحرية، فإنها في الوقت ذاته تعد تحدياً وتهديداً - إن لم يتم التعامل معها بوعي ويقظة-.

وكتاب «المباني الفكرية لوسائل التواصل الاجتماعي» هو أحد الكتب الصادرة عن مركز المعارف للدراسات الثقافية في لبنان لسنة ٢٠٢١م ويتكون من ٩٨ صفحة يستعرض مفهوم التواصل والتواصل الاجتماعي خاصة، وأهميته وتطوره وتعدد أدواته ووسائله، وكذلك المباني والخلفيات الفكرية التي يقوم عليها، ويتحرى عن الأهداف والغايات التي يراد تحقيقها. من هنا سنلقي إضاءة سريعة على الكتاب، وتلخيص أهم الأفكار الرئيسة فيه، وهي بالتأكيد لا تغني عن القراءة الشاملة للكتاب والاستفادة من المعلومات الوفيرة التي تضمنها.

أهمية وسائل التواصل الاجتماعي

تناول الكتاب في مطلعاه أهمية وسائل التواصل الاجتماعي في عالمنا المعاصر، لأنها أصبحت من حيث التأثير تتجاوز البعد الجغرافي والبيئي والثقافي والحدود والقيود مادية أو معنوية، لأن «التطور في تكنولوجيا الاتصال والتواصل تغيّر في وجه الحضارة البشرية المعاصرة، إذ وضّعتنا التقدم التكنولوجي في قلب مجتمع ما بعد المعلومات إن صحّ التعبير،

مدفوعاً بمجموعة من محرّكات القوى التكنولوجيّة، ويأتي على رأسها مواقع التواصل الاجتماعيّ، وتطبيقات الموبايل، والطائرات من دون طيار، والطابعات ثلاثيّة الأبعاد، وإنترنت الأشياء، والذكاء الصناعي، والحاسبات الكموميّة، والحوسبة السحابيّة، والسيّارات ذاتيّة القيادة، والروبوتات، والعملات الافتراضيّة، وتقنيّات الواقع الافتراضيّ، بصورة قد تدفع بقوة نحو إنشاء حياة جديدة تسيطر فيها التكنولوجيا على شكل الحياة البشريّة، وتعيد صياغة كافّة التفاعلات الشخصيّة والدوليّة».

من جانب آخر ذكر الكتاب الدور الذي تقوم به هذه الوسائل، حيث يأخذ هذا الدور مدياتٍ واسعةً على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع، «فهذه التكنولوجيا الاتصاليّة عموماً، ووسائل التواصل الاجتماعيّ خصوصاً، ستعيد رسم شكل العالم ومضمونه. إذ بدأ الباحثون، في علوم الاتّصال وعلم النفس والاجتماع وغيرها، يدركون أهميّة البحث عن فلسفة الإنترنت، والمباني الفكرية للفضاء الرقمي، وطبيعة شخصيّة (الفرد الإنترنتي)، وما تتركه مشاركة الإنسان على وسائل التواصل الاجتماعيّ من آثار على شخصيّته وتكوينه الذهنيّ، والنفسيّ، والاجتماعيّ، والقيميّ». ومن النقاط الجديرة بالأهمية التي ذكرت في هذا السياق، أن وسائل التواصل الاجتماعيّ، ليست آلياتٍ فارغةً من كل مضمون وليس لها رسالة وهدف سواء على مستوى الخلفيات أم على مستوى التأثير الذي تتركه بوعي أو باللاوعي، «بل تحمل في داخلها رسالة، ولها تداعيات على شبكة العلاقات الإنسانيّة والمنظومة الحضاريّة التي ينتمي إليها الناشط على هذه المواقع والمستخدم لها. لقد أوجدت هذه الوسائل «فجوة ثقافيّة»، بتعبير العالم الأمريكي وليام أوجبرن، والفجوة الثقافيّة هي الظاهرة التي تُحتم على المجتمع أن يعيد تنظيم نفسه بعد كلّ اختراع وتقدّم تقنيّ، حتى تتكيّف جميع عناصره وتسير جوانب الثقافة ماديّة ومعنويّة جنباً إلى جنب».

إنّ البشرية اليوم ربما تعيش «في عمق هذه الفجوة الثقافيّة التي سبّبها التطوّر التكنولوجي، ممّا يحتم على مجتمعنا الإيماني والجهات المعنيّة بالقرار الثقافيّ، بالمعنى العام، إعادة تنظيم المجتمع نتيجة هذه التطورات بما ينسجم مع المنظومة العقائديّة والقيميّة والتشريعيّة الدينيّة، وبما يساهم في المشاركة على هذه الوسائل بنحو يحافظ فيه الناشط على الضوابط القيميّة والشرعيّة، ويجعل هذه الوسائل منصّات لتحقيق الأهداف الرساليّة

أو على الأقل الحدّ من المؤثرات السلبية لهذه البيئة الجديدة.»

تشكّل المباني الفكرية لوسائل التواصل الاجتماعي

استعرض الكتاب جملة من المباني الفكرية التي تساهم في عملية التواصل عامة ووسائل التواصل الاجتماعي بشكل خاص، كونها أحدثت-وسائل التواصل الاجتماعي- نمطاً جديداً من العلاقات والتواصل والتفاعل بين الأفراد والوسط الاجتماعي، وأن العلاقة في البيئة الافتراضية واسعة لها نظامها وثقافتها الخاصة، وهي لا تزال في طور التشكل والتطور والتغير المستمر. وأن المباني الفكرية التي تقوم عليها كثيرة ومختلفة، ومن أهم المباني الفكرية التي ذكرها الكتاب ما يأتي:

- إنَّ الإنسان كائنٌ اجتماعيٌّ، يميل بطبعه إلى التشكُّل والتواصل مع الآخرين داخل وحدات يؤمّن بواسطتها حاجاته، تتحقق أهداف التشكُّل الاجتماعيّ البشريّ من خلال وسائل تُمكن البشر من إيصال مطالبهم والتشارك فيها، فالاتّصال والتواصل أساس الحياة الاجتماعيّة.
- لقد عرفت البشريّة تشكُّلات اجتماعيّة متنوّعة من مدن وقرى، ومساجد وكنائس، وأحزاب، وجمعيات، ونقابات، ومؤسّساتٍ... يلجأ إليها تلبيةً لحاجاتهم المختلفة؛ الفكرية والروحيّة والعاطفيّة والبدنيّة والاجتماعيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، والعلميّة.
- الإنسان في تواصله مع الآخرين عبر التاريخ بواسطة وسائل متنوّعة كالإشارات والنقوش، والمشافهة والكتابة المباشرة. ثم مع التطوّر العلميّ دخلت وسائل جديدة، كالتلغراف، والهاتف، والمذياع، والتلفزيون... الخ، ثم تقدّم الإنسان في تكنولوجيا الاتّصال والتواصل، مبدعاً الفضاء السيبريّ ووسائل التواصل الاجتماعيّ.
- إنّ وسائل التواصل الاجتماعيّ هي في النتيجة وسائل، والوسيلة تعني الطريق الذي يعتمده الإنسان من أجل الوصول إلى تحقيق هدفٍ ما، فثمة أهداف مسكونة في ذهن الآباء المؤسّسين يريدون تحقيقها ويسعون في ذلك، والقيّمون على هذه الوسائل عندهم نوعان من الأهداف: أهداف ثابتة، وأخرى متحرّكة ومرنة؛ يُطوّرون نظرتهم إليها في ضوء الكثير من المعطيات والوقائع، فيعدّلون في هذه الوسائل ويبرمجونها ويصمّمونها بما يتلاءم مع خدمة أهدافهم الجديدة.

- إنَّ الأشخاص الذين عملوا على تأسيس وسائل التواصل الاجتماعي ينتمون إلى محيط حضاري وفلسفة حياتية خاصّة أدت دوراً في تصميمها وهندستها وبرمجتها بكيفية خاصّة، وذلك لأنَّ سلوك الإنسان وليد أنماط تفكيره ورؤيته عن الحياة، فمبادئ الفلسفة الحياتية تتحوّل إلى إطار ثقافي يعيشه الإنسان بشكل تلقائي ويوجّه سلوكه في الحياة، فمهما بالغوا في التقنيّة وتوغّلوا فيها فلن يستطيعوا عزل AND عالم الأفكار عن أن يصبغ عالم الأشياء.
- أنشأت الأجهزة الأمريكيّة هذه الوسائل في البدايات لأغراض عسكريّة واستخباراتيّة، تتمحور حول جمع المعلومات وتخزينها وتحليلها لصناعة القرارات في ضوءها، بهدف قيادة العالم والتحكّم به والسيطرة عليه، فهذه الوسائل انطلقت من فلسفة خاصّة تكمن في الشعور الأمريكيّ بضرورة التفوّق عبر فائض القوّة بأشكالها المختلفة، ليس من الضروري أن تخدم هذه الوسائل السياسة الأمريكيّة النظاميّة أو الرسميّة فقط، بل تخدم فلسفة الحياة الأمريكيّة ومنظومة القيم الأمريكيّة، من خلال انتماء القيّمين على إدارة هذه المواقع وبرمجتها إلى تلك الفلسفة الحياتية. وهذا ما نلمسه في تصريحات مؤسس فيسبوك مارك زوكربيرغ.
- التحوّل في الآلات والوسائل لا يقتصر على الفضاء التقنيّ والشكليّ، بل يتعدّاه إلى إحداث تحوّل في بنية الحياة الإنسانيّة وشكل الحضارة البشريّة ونظمها وقيمها وأفكارها وعلومها وفلسفاتها... فتكنولوجيا الاتّصال عموماً، ووسائل التواصل الاجتماعيّ خصوصاً، ستعيد رسم شكل العالم ومضمونه. فلم يعد بالإمكان النظر إلى التقدّم في الوسائل على أنّه مجرد تطوّر في ميدان تقنيّ، بل التطور التقنيّ أو الآلي له تداعيات في المضمون والرسالة، فالوسيلة تعيد صياغة شكل العالم ومضمونه.
- وضعت وسائل التواصل الاجتماعيّ الفرد أمام مجموعة هائلة من الخيارات السياسيّة والإعلاميّة والثقافيّة بنحو لا تستطيع جهة واحدة سواء أكانت حكوميّة أو دينيّة أو حزبيّة أن تقود الجمهور المتعدّد الآراء والتوجّهات على مواقع التواصل الاجتماعيّ وتتحكّم بخياراته. إذ بدأ الجمهور يتعرّف أكثر على الخيارات المتنوّعة، وبات لا يجد نفسه مجبراً على أن يستمع إلى وجهة نظر جهة واحدة.

- أدت ديمقراطية الاتصال والندية التفاعلية بالعديد من النخب الثقافية والدينية إلى الابتعاد عن الانخراط في الفضاء الرقمي، وإن انخرطوا نلاحظ انسحابهم أو عدم فعاليتهم، لعل ذلك لشعبوية هذه البيئة، أو كما يعبر الباحث الإيطالي أمبرتو إيكو: إن الميديا الاجتماعية أتاحت حق التعبير إلى جموع من الحمقى.
- عززت ديمقراطية الاتصال من الشعور بقوة حضور الأنا، لأنها أخرجت آليات التعبير من أسر السلطة واستثنائها بحق الكلام، والتي كانت تتمثل في قادة المجتمع والدولة والمسجد إلى أيدي الناس جميعاً، حيث وجد الفرد الإنترنتي نفسه وجهاً لوجه ورأساً لرأس مع النخبة، بل قد يفوقها حضوراً في هذا الفضاء العمومي، فهو شخص صاحب رأي وموقف يجادل ويناقدش ويعلق بحرية، فبرزت صورته الفردية وتضخمت معها قوة حضور الأنا والنزجسية وتضخم الذات. فبعد أن كانت ذاته ذائبة في هوية سلطة الجماعة والحزب والدولة، أصبح الفرد الإنترنتي الذي لا حيثية اجتماعية له في الواقع، عندما يرى عنده آلاف الأصدقاء والمتابعين، ومئات الإعجابات. يرى نفسه من منظار متضخم عن حجمه الواقعي.
- أتاح تفكيك الهوية الشخصية، في العالم الافتراضي، عدم الشعور بالحرج في الكتابة عمًا يجول في خاطر ولا في تجاوز اللياقات الاجتماعية وآداب الحوار إلى حدود تبادل السباب والشتم. فعندما يستخدم الناشطون أسماءهم الحقيقية، طالما أنهم ليسوا في مواجهة مباشرة وجهاً لوجه لا يشعرون بالحرج أو الارتباك نفسه الذي يشعرون به في المواجهات الواقعية. لذلك، تُعد مجتمعات العالم الرقمي فضاءات رحبة للتمرد على الخجل والانطواء مروراً بالتمرد على الأخلاق العامة واللياقات الاجتماعية، انتهاءً بالثورة على الأنظمة السياسية.

عملية التواصل وعناصرها وإشكالية مفهومها

أشار الكتاب إلى تعريفات كثيرة للاتصال، وخلص في القول إلى أن مفهوم الاتصال: (هو عملية يقوم بها طرف ما، بنقل رسالة معينة، عن طريق الرموز، إلى طرف آخر، في ظرف خاص وبيئة معينة، من أجل تحقيق هدف يريد الطرف المرسل الوصول إليه). وقد وضح الكتاب في هذا المجال الأجزاء التي تتكون منها عملية الاتصال بعد تفكيكها

وتحديد عناصرها الرئيسية وهي:

١. المتصل أو المرسل: هو الطرف (قد يكون شخصاً أو مؤسّسة أو شركة...) الذي يبادر بتوجيه رسالته إلى الآخرين.
٢. الرسالة أو المحتوى: هي المعلومات والمعطيات والمفاهيم والأفكار والآراء والعقائد والعواطف والمشاعر والقيم والأنظمة والقوانين والحوادث والوقائع... إلخ، التي يرغب المتصل بنقلها إلى الآخرين عبر الرموز.
٣. الوسيلة: هي الطريق الذي يعتمده المرسل لنقل الرسالة إلى الآخرين.
٤. الرموز: هي كل وسيلة تدلّ على المعنى المراد الذي يريده المتصل، سواء كانت صوتية كالكلام، أو صورية كالكتابة والصورة، أو مرئية كالفيديو، أو حركية كالإشارات، أو خليطاً منها.
٥. المرسل إليه: هو الطرف الذي يتلقّى الرسالة المنقولة إليه من المرسل.
٦. الظرف: هو البيئة الحضارية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي تتمّ فيها عملية الاتصال.
٧. الهدف: هو النتيجة التي يسعى المتصل إلى تحقيقها بواسطة عملية الاتصال.

أما وسائل التواصل الاجتماعيّ فهي: مواقع تُستعمل من قبل الأفراد، من أجل التواصل الاجتماعيّ وإقامة العلاقات والتعارف وتكوين صداقات حول العالم، وبناء جماعات افتراضية وفقاً لاهتمامات أو انتماءات مشتركة. ويمكن للمستخدم عبرها أن ينشئ صفحته الخاصّة، وينشر فيها سيرته وصورته ومعلوماته الشخصية، ويكتب مقالاتٍ ونصوصاً، وينشر تسجيلات فيديو. وقد نجح الفضاء السيبراني، والذي شكّله الإنترنت، في الجمع بين أفراد ينتمون إلى هويّات مختلفة في مجموعاتٍ تُعدّ تجمّعاتٍ اجتماعية تشكّلت من أماكن متفرّقة في أنحاء العالم بين أفراد يتقاربون ويتواصلون فيما بينهم عبر شاشات الحاسوب والبريد الإلكترونيّ؛ يتبادلون المعارف فيما بينهم ويكوّنون صداقات. ويجمع بين هؤلاء الأفراد اهتمام مشترك، ويحدث بينهم ما يحدث في عالم الواقع من تفاعلات، ولكن ليس عن قرب. وتتمّ هذه التفاعلات عن طريق آليّة اتصاليّة هي الإنترنت الذي بدوره ساهم

في حركات التشكُّل الافتراضية.

لذا لا يمكن إعطاء تعريف جامع مانع لوسائل التواصل الاجتماعي، لأنَّ هويَّتها لمَّا تتبلور بعدُ بشكل نهائيّ. فلم تصل هذه الوسائل إلى قَمَّة هرم الثبات في مجالها، بل هي تسير على خطِّ التطوُّر المستمرِّ والسريع. وإذا أردنا وضع ثوابت لتعريف مفهومها وتحديده بناءً على الوسائل الجديدة الآن، فهي بالتأكيد سوف تكون قديمة بمجرد ظهور مبتكرات أكثر حداثة.

دلالة المباني الفكرية لوسائل التواصل الاجتماعي

يشير الكتاب إلى ثلاث زوايا مهمة ورئيسة يمكن النظر لها لتفسير دلالة المباني الفكرية لوسائل التواصل الاجتماعي، وهذه الزوايا هي:

أولاً: زاوية المبادئ والأسس الثقافية والفكرية والمنطلقات والقابليّات الأيديولوجية، التي سبقت ورافقت نشأة وسائل التواصل الاجتماعي وتأسيسها. وهي تؤدِّي دوراً في رسم معالم هويَّتها وتصميمها في ضوء هندسة معيَّنة وبرمجة خاصّة. فمبادئ الفلسفة الحياتية تتحوَّل إلى إطار ثقافيّ يعيشه الإنسان بشكل تلقائيّ ويوجِّه سلوكه في الحياة. وكما يعبرُ الشهيد مطهري: «إنَّ طريقة تفكير الإنسان وعقيدته حول العالم، والوجود، والله، والمادة، والروح، تؤثِّر تأثيراً مباشراً على سلوكه في الحياة، فطريقة عمل أي فرد في الحياة ترتبط ارتباطاً تاماً بكيفية نظرتة ونوعها عن الكون».

في الواقع، لا يمكن إنكار أنَّ هذه الوسائل وُلدت من رحم سياق حضاريّ- ثقافيّ له فلسفته الحياتية الخاصّة، ولكن السؤال: هل انعكست هذه الأسس القابليّات الثقافية، وإنْ بصورة الدوافع اللاشعورية، على إنشاء هذه الوسائل وهندستها وبرمجتها بصورة معيَّنة ومحدّدة؟

إنَّ الشخص الذي عمل على تأسيس وسائل التواصل الاجتماعي وتصميمها وهندستها وبرمجتها ينتمي إلى محيط حضاريّ معيَّن، وإلى فلسفة حياتية خاصّة، أي له نظرة إلى الحياة والمجتمع والإنسان.

بناءً على ما تقدّم من عموم قاعدة انصبغ السلوك البشريّ بلون التفكير، يمكن

القول - بشكل عام - إنَّ الفلسفة الحيائية للمؤسسين انعكست على هذه الوسائل، لأنَّهم مهما بالغوا في التقنيَّة وتوغَّلوا فيها لن يستطيعوا عزل DNA عالم الأفكار عن أن يصبغ عالم الأشياء. ولعلَّ بإمكاننا تصيِّد هذا المعنى من قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾.

ثانياً: من زاوية الغايات والأهداف المقصودة، أي ما هي الأهداف التي شكَّلت المحرِّك للآباء المؤسِّسين للدفاع نحو تأسيس هذه الوسائل وإنشائها أو الاستمرار فيها؟ وهذا القيد الأخير يجدر التنبُّه إليه، لأنَّ الأهداف والمقاصد لهذه الوسائل -كما أشرنا- في حال سيلان وتجدُّد مستمر، فالقيِّمون على هذه الوسائل يضعون أهدافاً ثابتة، وأخرى متحرِّكة ومرنة، ثمَّ يُطوِّرون نظرتهم إلى الأهداف في ضوء الكثير من المعطيات والوقائع، فيعدِّلون في هذه الوسائل ويبرمجونها ويصمِّمونها بما يتلاءم مع خدمة أهدافهم الجديدة. فالآباء المؤسِّسون، وإنَّ كانت لهم أهداف معيَّنة عند إرادة إنشاء هذه الوسائل، إلا أنَّ لائحة أهدافهم تتطوَّر وتتبدَّل وتتغيَّر مع مرور الوقت، سواء صرَّحوا بهذه الأهداف المستجدة وحاضروا وكتبوا عنها، أم أخفوها وأضمروها.

في المحصَّلة، إنَّ وسائل التواصل الاجتماعيَّ هي وسائل، فإذا أخذنا المعنى الفلسفيِّ للوسيلة، التي تعني الطريق الذي يعتمدُه الإنسان من أجل الوصول إلى تحقيق هدفٍ ما، فنسأل عنها: هي وسيلة إلى ماذا؟ ثمَّة أهداف مسكونة في ذهن الآباء المؤسِّسين، يريدون تحقيقها ويسعون في ذلك. فالإنسان الذي عمل على إنشاء وسائل التواصل الاجتماعيِّ لم ينظر فقط إلى «كيف؟» بل كان في ذهنه سؤال: «لِم؟» الذي هو سؤال عن الأهداف التي تفاعلت في دماغه لتأسيس فيسبوك، أو تويتر، أو يوتيوب، أو إنستغرام، أو الاستمرار فيها. أمَّا إذا قيل - كما يذهب إلى هذا الرأي العديد من الباحثين- إنَّ هذه الوسائل نشأت لهدف عسكريِّ واستخباراتيِّ يتمحور حول قيام الجيش الأميركيِّ وأجهزة الاستخبارات الأميركيةِّ بجمع المعلومات وتخزينها وتحليلها لصناعة القرارات في ضوءها، فإنَّما يكون ذلك لمبنى فكريِّ سابق أو هدف استراتيجيِّ أعلى يحكم هذا الهدف، وهو قيادة العالم والتحكُّم به والسيطرة عليه. طبعاً ليس من الضروريِّ أن تخدم هذه الوسائل السياسة الأميركيَّة النظاميَّة أو الرسميَّة فقط، بل تخدم فلسفة الحياة الأميركيَّة ومنظومة القيم الأميركيَّة من خلال انتماء القيِّمين على إدارة هذه المواقع وبرمجتها إلى تلك الفلسفة الحيائيَّة، كما يظهر خلال مقالة مارك زوكربيرغ مؤسس فيسبوك. فقد صرَّح مارك زوكربيرغ في مقالٍ له

تحت عنوان بأن وظيفة فيسبوك هي المساهمة في تنمية الشخصية وتعزيز القيم، فعن أي قيم يتحدث زوكربيرغ؟ إنها قيم المجتمع الأمريكي ونمط الحياة الأمريكية. هذا ما يُصطلح عليه في سيكولوجيا الإعلام والاتصال وظيفية خلق الدوافع، أي دعم أهداف مجتمع ما من خلال تشجيع وسائل الإعلام والاتصال على خيارات بعينها.

ثالثاً: بلحاظ النتائج والآثار، فنمّة نتائج تظهر على شخصية المستخدم، وإن لم تكن مقصودة له أو للمؤسسين، إلا أنها تترتب على تراكم استخدام تلك الوسائل كترتب المعلول على علته، وإن لم يكن له علاقة مباشرة بالقصد والاختيار الواعي والحر. فالأعراض الجانبية لاستخدام هذه الوسائل تتراكم تدريجياً بشكل خفيف في المحتوى الداخلي للشخصية، وتؤثر فيه وتتفاعل داخله حتى تطفو على السطح فجأة.

ويمكن القول إن استخدام هذه المواقع له آثار منها ما يخدم الأهداف الأمريكية في بناء بنك معلومات عن شخصيات المشاركين من خلال ما يدخله المستخدم من معلومات عن نفسه وعن الآخرين، وما يطرحه من آراء ووجهات نظر، وما يعبر عنه من عواطف ومشاعر، فذلك يخدم أهداف الأجهزة الأمريكية في تحليل أنماط الشخصية وكشف العلاقات البيئية وأنحاء الارتباط لمستخدمي الشبكة ومعرفة اتجاهات الرأي العام، إلا أنه يمكن تجنبها أو الحد من تداعياتها عليه بفعل الالتزام بالعديد من الضوابط المتعلقة بالخصوصية من جهة، ومن جهة أخرى مراعاة البعد الأخلاقي والشرعي والتنبيه والوعي في الاستخدام.

إلا أنه تبقى النقطة الأساس هي أن المستخدم سيتأثر بتصميم وبرمجة هذه الوسيلة في إحداث تحول ما في شخصيته، إذا نظرنا إلى طبيعة العلاقة بين الوسيلة والأثر المضموني الذي تتركه على شخصية المستخدم. إذ تؤدي برمجة هذه الوسيلة بكيفية خاصة إلى غرس مجموعة من المفاهيم والقيم التي تُحدث فرقاً، وتوجد تحولاً في الشخصية أو تكسر بعض الحواجز القيمية.

رؤية (مارك زوكربيرغ) لوسائل التواصل الاجتماعي

من الأفكار التي وقف عندها الكتاب وحللها رؤية مؤسس فيسبوك (مارك زوكربيرغ)

عن وسائل التواصل الاجتماعي، «حيث يدّعي زوكربرج أنّ وسائل التواصل الاجتماعيّ عموماً، وفيسبوك خصوصاً، يذهب في هذا الاتجاه إلى توفير فرصة لبناء مجتمع عالميّ جديد، تحدّث فيه حركة اتّصال عالميّة وبناء تفاهم مشترك من أجل تعظيم الأثر الإيجابيّ في حلّ المشكلات ومواجهة التحدّيات، وتوفّر وسائل التواصل الاجتماعيّ ذلك من خلال إشراك أكبر عدد ممكن من البشر لتخصيص طاقاتهم في بناء البنية التحتيّة الاجتماعيّة العالميّة. وبعبارة أخرى بحسب قوله: أهم ما يمكننا فعله في فيسبوك هو تطوير البنية التحتيّة الاجتماعيّة لنعطي الناس القوّة لبناء مجتمع عالمي يصبّ في صالحنا جميعاً».

فوسائل التواصل تعزز مكانة النزعة الفردية في ظل بيئة المجتمع العالميّ الجديد (الفضاء الافتراضي)، فهي بيئة حاضنة لتعرّف الناس على بعضهم البعض، وتقريبهم من بعض، وهو عالم انفتاح أي عضو على ثقافات وحضارات وأديان وطوائف مختلفة، وهو عالم يُعظّم فيه دور الفرد ومكانته العالميّة. كما أنّ هذا المجتمع الكبير يحوي في داخله مجتمعاتٍ صغيرةً جديدةً تتشكّل في ضوء الاهتمامات المشتركة، أو كما يعبر زوكربرج مجموعات مؤثّرة في الحياة تربطها هموم مشتركة، وتدعم بعضها البعض في حياتها اليوميّة على أرض الواقع من خلال لقاءات وتنظيم حفلات وغيرها.

بناءً على ما تقدّم من رؤية زوكربرج لوسائل التواصل الاجتماعي، يمكن القول إنّ مشاركة أي فرد في فتح حساب على مواقع التواصل الاجتماعيّ؛ كفيسبوك أو تويتر أو غيرها، وينشط في هذه المواقع تجعله عضواً تلقائياً في بناء البنية التحتيّة للمجتمع العالميّ الجديد، فالانخراط في مواقع التواصل الاجتماعيّ هو انخراط في عضويّة مجتمعيّة جديدة. وهنا يأتي السؤال الكبير عن القواعد والضوابط التي تحكم طبيعة هذه العضويّة الاجتماعيّة الجديدة، من ناحية الانتماء، والهويّة، والدور، والوظيفة .

إنّ الإنسان لا يكتسب تصوّراته وعقائده واتّجاهاته وقيمه وسلوكياته ومهاراته من تلقاء نفسه نتيجة لتأمّله الدّاتيّ، بل بفعل تأثره بالمحيط الذي يمارس فيه حياته وأنشطته ويفرغ فيه طاقاته، فتتشكّل لوحة شخصيّته بفعل الانفعال والتأثر بالبيئة الاجتماعيّة والمحيط العام عبر التفاعل بين ذاته وبين بيئته في كليّتها. وهذا ما يُخبرنا عنه القرآن الكريم عن أولئك الذين كان النبيّ يدعوهم لاتباعه فيجيبون: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

آبَاءَنَا، ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾. فقوّة تأثير البيئة في بناء شخصيّة الإنسان ممّا لا يمكن لأحد إنكاره، فحتى الفطرة التوحيدية الصافية التي أودعها الله بأصل الخلقة في نفس الإنسان لا تصمد أمام تأثيرات البيئة الأسرية والمجتمعية. وعن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، قال: «ما من مولود يولد إلّا على الفطرة فأبواه يهودانه ويُنصرانه ويمجسانه...». وفي هذا السياق ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) أيضاً، أنّه قال: «بادروا أولادكم بالحديث قبل أن يسبقكم إليهم المرجئة». وباختصار لا - أحد - يستطيع أن يُنكر أصل تأثير البيئة الاجتماعية ونفوذها في تكوين شخصيّة كلّ واحد من أفراد الإنسان، وأنّ هذا التأثير والنفوذ عميق وشامل بالنسبة للأكثريّة الساحقة من الناس، فلا ريب أنّ الفرد في كثير من الأحيان محكوم لإرادة المجتمع.

من هنا فإن البيئة الجديدة لمواقع التواصل الاجتماعيّ مثل فيسبوك وتويتر ويوتيوب وإنستغرام، هي بيئة اجتماعيّة واقعيّة وليست مجازية أو افتراضية إلّا بلحاظ المقارنة والنسبة الاعتبارية مع الواقع التقليديّ الذي اعتدناه. وذلك لأنّ معيار الواقعيّة والأصالة هو أن يكون الشيء منشأً لترتب الآثار الحقيقيّة، ووسائل التواصل الاجتماعيّ، أو ما يُسمّى العالم الافتراضيّ هي بهذا المعنى واقعيّة على قدر الواقع الاجتماعيّ نفسه. وفي جملة موجزة أنّ المجتمع مؤثّرٌ في صناعة شخصيّة الإنسان هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ تأثير المجتمع لا يصل إلى حدّ إلغاء خصوصيّات الإنسان الفرديّة بالكامل أو الجبر الاجتماعيّ وسلب العناصر الذاتية والتفاعلات الخاصّة.

في الختام

لقد خلص كتاب (المباني الفكرية لوسائل التواصل الاجتماعي) إلى مجموعة من الاستنتاجات بعد أن استعرض الكثير من الأفكار والتصورات وتحليلها، ولعل من أهمها الآتي:

- من مزايا المكان الافتراضي هو نهاية فوييا المكان، إنّ الخوف من المكان دليل على تملّكنا لمكان آخر، وعندما ندخل في منظومة المكان الافتراضيّ نصبح لا نخشى شيئاً

بحكم عدم مقدرتنا على تمثلك الافتراضي كونه فضاءً، لذلك وصفت شبكة الإنترنت كفضاء افتراضي بأكثر الأمكنة تحرُّريَّة، وعدم مقدرة أي طرف على امتلاكها.

- إنَّ الفرد عندما يعيش التفاعليَّة ويتحوَّل من مجرد متلقٍ إلى فاعلٍ ومن مجرد مستهلكٍ للأفكار والآراء إلى منتجٍ للمضمون ومشاركٍ ومساهمٍ بطريقةٍ نديَّة وتكافؤيَّة في طرح الأفكار والآراء؛ فإنَّ الأثر السيكولوجيَّ لتغييره لا يبقى على خصوص المشاركة في الفضاء الرقمي، بل يصبح جزءاً من هويته وتركيبته النفسيَّة، والتي سيجملها معه إلى الواقع الاجتماعيِّ.

- تتَّسم المجتمعات الافتراضيَّة بدرجة عالية من اللامركزيَّة، وتنتهي بالتدرج إلى تفكيك مفهوم الهوية التقليدي. ولا يقتصر تفكيك الهوية على الهوية الوطنيَّة أو القوميَّة، بل يتجاوزها إلى الهوية الشخصية، لأنَّ من يرتادونها في أحيانٍ كثيرة بأسماء مستعارة ووجوه ليست وجوههم، وبعضهم له أكثر من حساب.

- لقد أدَّت ديمقراطية الاتصال بالعديد من النخب الثقافيَّة والدينيَّة بالابتعاد عن الانخراط في الفضاء الرقمي، وإنَّ انخرطوا نلاحظ سرعة انسحابهم أو إقفال حسابهم أو عدم فعاليَّتهم؛ ولعلَّ ذلك لشعبيَّة هذه البيئة، أو كما يُعبِّر الباحث الإيطاليُّ أمبرتو إيكو، والذي نكرَّره، هو: إن الميديا الاجتماعيَّة أتاحت حقَّ التعبير إلى جموع من الحمقى.

- إنَّ الملكات والهويَّات لا تتجزَّأ أو على الأقل يصعب تجزيئها. وإذا كانت وسائل التواصل الاجتماعيِّ تتيح فرصة المشاركة المتكافئة في إنتاج المضمون وحقَّ التعبير عن الرأي والنقاش، فإنَّ العمليَّة التشاركيَّة في اتِّخاذ القرار وصناعة الرأي تصبح مطلب الفرد الإنترنتيِّ لأنَّها حالة نمطيَّة عنده في ضوء الخطِّ البيانيِّ لخصائص شخصيَّته. فسيتوقَّع أن يطالب الدولة والحزب أو المؤسَّسة التي ينتمي إليها بأن يكون شريكاً في صناعة الرأي، وأن لا تُهمَّش وجهة نظره، أو بالحدِّ الأدنى ستكون قوَّة الاعتراض والنقاش والجدل للرأي حاضرة في القرارات والقضايا كآفة.

- يمكن القول إنَّ وسائل التواصل الاجتماعيِّ، تسهم بتفاعليَّة غير مسبوقه في تاريخ البشريَّة، بإعادة تركيب الذهنيَّة الفكرية والأداء الاجتماعيِّ للمجتمعات، فضلاً عن دورها البارز في تشكيل مفاهيم جديدة للهويَّات المحليَّة الخاصَّة. ويمكن تحديد أهم

هذه الأدوار: إثارة الرأي العام أو إعادة توجيهه، تشتيت الرأي العام، التشويه السياسي الإلكتروني، التسويق السياسي، من جهة والتعبئة السياسية من جهة أخرى، وكذلك دعم «الأنا» لدى الفئات المهمشة، وتعزيز مفهوم المواطنة الافتراضية لديهم.

- إن التفسير الذي قدّمه بعض المفكرين «في اختلاف معدل التغيير في كل من الثقافة المادية واللامادية، نتيجة التأثير التقني في المجتمعات يعدّ الأساس في التحليل الاجتماعي لتقنية الاتصال»، مع احتمال «حدوث تصادم بين التغيير التقني والتغيير الثقافي»، ويترتب عليه خللٌ وظيفيٌّ ممّا يؤثّر في تفكير أفراد المجتمع، وتغيّر في القيم والأيدولوجيات السائدة.

في الختام لا بد من الإشارة إلى أن الأفكار الملخصة عن الكتاب لا تغني عن الرجوع له ومطالعه كونه يحمل الكثير من المفاهيم والتصورات الجديرة بالقراءة والمطالعة.

هوية الكتاب

العنوان: المباني الفكرية لوسائل التواصل الاجتماعي

إعداد: مركز المعارف للدراسات الثقافية

عدد الصفحات: ٩٨ صفحة

سنة النشر: ٢٠٢١ م



عن المركز

مركز البيدر للدراسات والتخطيط منظمة عراقية غير حكومية، وغير ربحية، تأسس سنة ٢٠١٥م، ومُسجل لدى دائرة المنظمات غير الحكومية في الأمانة العامة لمجلس الوزراء.

ويسعى المركز للمساهمة في بناء الدولة، عن طريق طرح الرؤى والحلول العملية للمشاكل والتحديات الرئيسية التي تواجهها الدولة، وتطوير آليات إدارة القطاع العام، ورسم السياسات العامة ووضع الخطط الاستراتيجية، وذلك عن طريق الدراسات الرصينة المستندة على البيانات والمعلومات الموثقة، وعن طريق اللقاءات الدورية مع الجهات المعنية في الدولة والمنظمات الدولية ذات العلاقة. ويسعى المركز لدعم الإصلاحات الاقتصادية والتنمية المستدامة وتقديم المساعدة الفنية للقطاعين العام والخاص، كما يسعى المركز لدعم وتطوير القطاع الخاص، والنهوض به لتوفير فرص عمل للمواطنين عن طريق التدريب والتأهيل لعدد من الشباب، مما يقلل من اعتمادهم على المؤسسة الحكومية، ويساهم في دعم اقتصاد البلد والارتقاء به.

ويسعى أيضاً للمساهمة في بناء الانسان، باعتباره ثروة هذا الوطن، عن طريق تنظيم برامج لإعداد وتطوير الشباب الواعد، وعقد دورات لصناعة قيادات قادرة على طرح وتبني وتطبيق رؤى وخطط مستقبلية، تنهض بالفرد والمجتمع وتحافظ على هوية المجتمع العراقي المتميزة ومنظومته القيمية، القائمة على الالتزام بمكارم الاخلاق، والتحلي بالصفات الحميدة، ونبذ الفساد بأنواعه كافة، إدارية ومالية وفكرية وأخلاقية وغيرها.

حقوق النشر محفوظة لمركز البيدر للدراسات والتخطيط

www.baidarcenter.org

info@baidarcenter.org